حول «منهج جديد للدراسات الإنسانية»
دراسة فلسفية لكتاب «ريكمان»

د. إسماعيل زروخى
رئيس قسم الفلسفة
جامعة قسطنطينية، الجزائر

مقدمـة:

إن الإنسانية اليوم بحاجة ماسة للبحوث المختلفة فى جميع التخصصات أكثر من أى وقت مضى، ولاسيما البحث فى الظواهر الإنسانية، الذى يبقى دائماً بحثا يتميز بخصوصياته، سواء تلك التى تميزه عن البحث فى مختلف الظواهر، أو التى تربطه بكيان الإنسان ذاته. وقد قامت عدة محاولات فلسفية وإبستمولوجية حاول أصحابها أن يطابقوا بين الظاهرتين (الإنسانية، والطبيعية) من حيث توحيد منهجهما، معتبرين أن منهج العلوم الطبيعية بما يحتوى عليه من دقة هو النموذج الأمثل الذى ينبغى أن تبلغه مختلف العلوم الأخرى للوصول إلى معرفة تحقق أكبر قدر من الدقة والموضوعية، والمنهج فى حد ذاته - كما هو معلوم - من الوسائل الضرورية فى البحث، فى كل حقول المعرفة، ولكن للحديث عن المناهج العلمية، تصادفنا مجموعة من التساؤلات، يمكن تحديدها كالآتى: هل المناهج فى كل العلوم وميادين المعرفة واحدة؟ وهل ما حققته العلوم الطبيعية بمناهجها المختلفة يمكن أن تنطبق فى العلوم الإنسانية؟ وهل هناك خصوصيات محددة فى كل منهج من مناهج تلك العلوم؟ وما هى الخصوصيات التى جعلت مناهج العلوم الطبيعية هى النموذج؟

ولعل هذا هو الهدف العام الذى حاول المؤلف الأستاذ «ريكمان Rickman»[1]

---

(1) «هـ. ب. ريكمان، هو أستاذ بعدة جامعات وكليات بريطانية، من بينها أكسفورد، وهل، وسيتى، وتخصص فى تدريس الفلسفة وعلم النفس، من مؤلفاته: المعنى والتاريخ، ومنهج جديد للدراسات الإنسانية، محاولة فلسفية، كما أن له عدة مقالات، وكان الهدف العام من كل مؤلفاته، هو تبيان دور الفلسفة فى توضيح أسس الدراسات الاجتماعية». من مقدمة مترجمى كتاب، «منهج جديد» المشار إليه، وهما: د. على عبد المعطى محمد، د. محمد على محمد، مكتبة مكاوى، بيروت، 1979م، ص 88.

توضيحه، فى بحثه، من خلال دراسته الرائدة فى كتابه الموسوم بالعنوان المذكور أعلاه، محاولا ليس فقط تبيان معطيات وخصوصيات المنهج فى العلوم الإنسانية، بل وكذلك معطيات وخصوصيات المنهج فى العلوم الطبيعية، برؤية فلسفية إجتماعية، على اعتبار أن المنهج الأول يتعلق بالطبيعة الإنسانية، مما يفرض عليه أن يختلف عن المناهج فى العلوم الأخرى، وذلك الاختلاف لا يمكن أن يكون على مستوى الخطوات العامة للمنهج، وإنما على مستوى المفاهيم والافتراضات، وعلى مستوى الوعى نفسه، وبهذه الرؤية أو الوعى يمكن كما قال «ريكمان» أن نفتح آفاقا جديدة للمنهج فى العلوم الإنسانية، أو نفتح ما قد يكون قد أغلق، وبذلك - كما يقول مقدم الكتاب - يقتنع كل دارس له بأن الفلسفة ليست ضرورية فقط فى جانبها الابستمولوجى، وإنما هى ضرورية أيضا فى جانبها المعرفى والنقدى، لأنها تعبير عن الواقع ومشكلاته الراهنة أو التاريخية.

إن ضرورة العناية بالبحث فى العلوم الإنسانية كما يقول المؤلف تعود إلى: تزايد عدد السكان من جهة، ومن جهة أخرى إلى التطور التكنولوجى (التقنى) الذى وصلت إليه الإنسانية، وما صاحبها من تعقيدات على مستوى الحياة الاجتماعية، ونحن - كما يقول - ملزمون بأن نعيش مع هذا الاكتظاظ السكانى، ومع هذه التكنولوجيات، ومن هنا كان لابد من وجود خبراء وعلماء يستطيعون فهم الناس، وفهم مشكلاتهم، يكونون قادرين على مساعدة الفرد على التكيف مع الآخرين، ومساعدة الآخرين على حل مشكلاتهم، وهذا هو الهدف الذى أدى إلى تنوع العلوم التى اهتمت بالإنسان خصوصا فى عصرنا الراهن، وإلى التوسع فى الدراسات الإنسانية، والعلمية، لأن العلم فى مفهومه، ما هو إلا الإحاطة والإلمام بالحقائق والتوسع فيها.

وهكذا فإن دراسة كتاب «**منهج جديد للدراسات الإنسانية**»، تعتبر أكثر من ضرورية فى البحوث والدراسات الفلسفية، نظرا لما تضمنه من آراء كثيرة حول العلوم الإنسانية، وإننا نعتقد أن الكتاب يعبر عن وجهة علمية موضوعية تتعلق بالدراسات الإنسانية والفلسفية، وتبرر أهمية الكتاب من المقدمة التى وضعها المترجم إلى العربية، وهى أساسية ومهمة نظرا لما اشتملت عليه من معانى هامة فى مسألة المناهج المتعلقة بالعلوم الإنسانية، والموضوعات التى تتناولها، ويرى المترجم أنه من

غير الفائدة، ولا من غير الاعتراف بالفضل أن نتعرض إلى المناهج فى العلوم الإنسانية ولا نتعرض إلى «ماكس فيبر Max Weber»[1] باعتباره أهم شخصية ساهمت فى بناء مناهج العلوم الإنسانية الحديثة وتطويرها، إذ لا يكاد – كما يؤكد

---

(1) ماكس فيبر: اقتصادى وعالم اجتماع وفيلسوف ألمانى (1864-1920) ، يتميز فكره بحدس دقيق يتجلى فى أعلى درجات التجريد، فى الفصل بين عالم الفكر والمعرفة وعالم العمل، ويقترب فكره من الفكر الكانطى. وكان من الموطورين لعلم الاجتماع، وعلم الاجتماع الفيبرى، وهو علم يكاد يكون تراجيديا، متشائما.

ويرى فيبر أن ماهية السياسة تتواجد فى عالم من القيم المتعارضة، وهذا ما أدى بالبعض إلى الحكم على هذا الميدان المعرفى بالسلبية، ومن ثم فإن عالم السياسة هو مسرح لصراع الآلهة. ومن هذا المنطلق يضع ماكس فيبر الإنسان السياسى فى وضعية مغلقة، فى اختياره بين أخلاقية الإيمان وأخلاقية المسؤولية، وهو اختيار يمكن فهمه كاختيار بين الأخلاق والعمل. فبالنسبة لماكس فيبر فإنه لا وجود لأيدى نظيفة فى العمل السياسى، فمن كانت يده نظيفة فلا يد له فى السياسة، على الإطلاق.

وعموما فإن علم الاجتماع الفيبرى هو علم عملى action، وعلم إنسانى باعتبار الإنسان كائن عامل، فالعلاقة بين العمل والمعرفة، واستحالة تعيين خيار جوهرى أساسى يسبق كل سلوك عملى، تجعل من العلم غير قادر على معرفة واكتشاف أية حقيقة للقيم الإنسانيةو بل أن ميول العالم لأى شئ له ما يقابله من ميول رجل العمل فنسبية القيم هى واحدة بالنسبة للفكر أو للعمل.

وتضاف إلى هذه النسبية ما يحمله الشئ فى ذاته، فسلوكات الإنسان لا يمكن فهمها إلا القيم التى تتحكم فيها. فالعالم مثل سائق العربة الأفلاطونى الذى لا يعرف مطلقا إذا كان يجب إيصال ركابه إلى الميناء، لأن المهم عنده أنه يعرف كيف يقود عربته، فالعالم الذى لا يمكن أن يحكم على اختيار بأنه حسن بإمكانه أن يؤكد على الأقل شيئين: نتائج اختياره، ووضع الفاعل أمام عمله كمسؤول، أى يعى بنفسه عوامل سلوكه، وأن يعرف قيمة العوامل والقيم التى جعلته يختار. وباختصار فإن علم الاجتماع يصبح علم كيفيات السلوك (العمل) من جهة، ومعرفة الذات من جهة أخرى.

فعلم الاجتماع هو علم العمل أو «السلوك»، ويذهب البعض إلى محاولة بنائه على شكل العلوم الطبيعية، فيرد فيبير على هذه المحاولة بأن الإنسان لا يمكن أن يدرس مثل دراسة الحجر الساقط، لأن الإنسان يعمل أى أنه يملك إرادة، وهدف وأسباب، كما يرد فى الوقت نفسه على الذين يستعملون فى علم الاجتماع العاطفة والميول، أنه يجب تكوين علم يستجيب لمعايير الموضوعية والمراقبة، أى أنه لا وجود لأى جانب نفسى فى مفهومه، فالفعل هو الوسائل بالنهايات، كأثر الرغبة التى اختارت نهاية محددة، وكذا نزوع عد الوسائل. فالمفهومية ترتبط بالخامة والنهاية المختارة، وبعبارة أخرى فإن فهم أى عمل، هو فهم معقوليته بالنسبة لخاتمته. وهذه المعقولية هى التى تمكننا من فهم ما يحمله من لا عقلانية. فالعلم لا يقتضى البعد الغامض الذى يعود إلى الحرية الإنسانية، والذى يمكن من الاستفادة من هذه الحرية بما تحمله من ذكائية "intelligible".

ويخلص فيبر إلى أن علم الاجتماع يهتم بسلوك الأفراد الاجتماعيين، فهو يهدف إلى فهم البشر كما هم عليه، وكما فكروا وعملوا، وهو لا يقف فى هذه النقطة، فهناك ما يقع بعد المعقولية التى تحكمت فى هذا السلوك وهو الجانب المبهم فى السلوك، وقد لا يكون جانبا واعيا، فهناك ما يعتقد الفرد أنه قام به، وما قام به حقاً، فعلم الاجتماع يجد نقطة بدايته فى الأفعال التى عاشها الإنسان .larousse multimedia, encyclopedie klio

المترجم – يخلو كتاب معاصر سواء على مستوى الموضوع أو المنهج، من الإشارة إلى هذا العالم. إذ يرجع الفضل له فى إرساء معالم علم الاجتماع المعاصر من خلال المناهج التى رسمها لمسائله، والآفاق الجديدة التى فتحها لفهم الحياة الإنسانية ودراستها، واستيعاب أبعادها وخصائصها الجوهرية، فهو قد بذل: «جهدا ممتازا لكى يتغلب على التعارض القائم بين العالم الطبيعى، وأن يقدم لنا نسقا سوسيولوجيا يحتفظ بأقيم العناصر المتضمنة فى كل من الإتجاهين»[1].

وفضل «ماكس فيبر» – كما يشير المترجم – يعود إلى أنه استطاع أن يدمج مناهج العلوم الإنسانية بعضها ببعض، وأن يدخل العنصر السيكولوجى فى الدراسات الاجتماعية، من خلال تتبع مسار سبب الفعل الإنسانى، وتحديد غاياته ومقاصده، رغم تشعبه، وتنوعه، وبتتبع السبب يمكن وضع العلم المراد دراسته على حقيقته العلمية التى تهدف فى عمومها إلى ترقية الإنسان نفسه. غير أنه على مستوى العلوم الإنسانية يتعين إضافة عنصر آخر فى المنهج، وهو الذى يسميه فيبر بـ «الفهم»[2] الذى يقوم على التعاطف مع الآخرين[3]، ومن هنا تحولت دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، إلى دراسة من الداخل، ولم تبق تراقبها وتتابعها من الخارج كالظواهر الطبيعية، وهذا هو التفرد الذى تميز به.

وسأحصر دراستى لهذا الكتاب على المسائل الرئيسية التى أثيرت فيه، لأن طبيعة البحث لا تسمح لنا بالتعرض إلى كل الجزئيات فيه، فالتعرض لها جميعا، يعنى الإحاطة بها، وبمفاهيمها سواء كما وردت عند المؤلف، أو كما هى مستخدمة

---

(1) المصدر السابق، ص 15.

(2) الفهم: مصطلح يدل على إدراك موضوع التفكير وتحديده واستخلاص المدلول من الدال عليه، فهو مرادف للإدراك، والعلم اليقينى، الذى يدل على أن تعلم ما تصرح بفهمه لا يمكن أن يكون إلا كما فهمته. (جميل صليبا، **المعجم الفلسفى**، دار الكتاب اللبنانى، دار الكتاب المصرى، مصر، 1979م، ج2، ص 170). وقد استخدم اللفظ فى اللغة العربية بنفس المعنى، وقد كان متداولا فيها منذ القدم، حيث عرفه، المناوى، بقوله: «هو تصور المعنى من لفظ المخاطب، وقال الراغب هو هيئة للنفس بها يتحقق معانى ما يحس». (المناوى، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق، محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، 1410هـ، ص 567). وقد عرفه الجرجاني كذلك، بقوله: «تصور المعنى من لفظ المخاطب». (الجرجانى، **التعريفات**، تحقيق، إبراهيم الأبيارى، دار الكتاب العربى، بيروت، 1405هـ، ص 217).

(3) المصدر السابق، ص 10.

فى السياقات الإصطلاحية، وقد يكون ذلك هو المشروع المستقبلى، لتتبع جزئيات الكتاب ومحتوياته كاملة.

أولا: موضوع الدراسات الإنسانية:

من الطبيعى أنه يتعين علينا مسبقا قبل أن نحلل عناصر الكتاب ،ومحتوياته، تحديد وضبط المعنى الاصطلاحى لمضمون المفاهيم التى شكلت عنوانه، وجوهر موضوعه، وكانت نقطة البدء فيه، هى: «الدراسات الإنسانية»، التى حاول الباحث أن يضعها فى نسق فلسفى خاص به، فكان مصطلح الدراسات الإنسانية كما بينه، هو الذى يضم: التاريخ، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجية الاجتماعية، والاقتصادية، وعلم النفس، والفيلولوجيا، والتشريع، والدين المقارن، وبعض المسائل ذات الموضوعات العامة مثل: الجريمة، ونظرية الاتصال، والدراسات الإدارية[1]، وتهدف هذه الدراسات الإنسانية كلها إلى صياغة تفسير ذاتى أو شخصى وفلسفى وتأملى وكيفى واستنباطى ورمزى، للموضوعات التى تتناولها، وتقف بذلك فى مواجهة التفسيرات السلوكية والكمية والوضعية[2]، والتجريبية التى لا تنفذ إلى طبيعة الفعل الإنسانى، وهذه العلوم التى تضمها هذه الدراسات الإنسانية ليست بالضرورة هى كل العلوم المتعلقة بالإنسان وحياته، إذ أن هناك علوما لها صلة بالإنسان وحياته لكنها ليست علوما إنسانية، فعلم التشريح على سبيل المثال هو علم يدرس الإنسان ولكنه، من العلوم الطبيعية وليس من العلوم الإنسانية[3]، وبهذه النظرة الإصطلاحية حاول مؤلف الكتاب تجاوز المناهج العلمية المبنية على النظرة الكمية إلى المناهة المبنية على الاستبطانات للمسائل التى تعالجها، وقد يبدو الأمر غريبا ومعقدا، ولكنه حقيقة، فقد حاول «ريكمان» بهذه الرؤية إيجاد مناهج جديدة للعلوم الإنسانية تتجاوز ما هو معطى ومتعارف عليه، من مناهج متعلقة بها وبموضوعاتها، أى أنها تشمل كل ميادين المعرفة الإنسانية، ووسائطها وأدوات تعميمها وتمثلها، وسنحاول فى دراستنا لهذا الكتاب، تتبع مختلف العناصر المتعلقة فى جوهرها بالمنهج فى العلوم الإنسانية، من حيث: ضرورته، وأهميته ، وأهدافه.

---

(1) المصدر نفسه، ص 105.
(2) المصدر نفسه، ص 89.
(3) جميل صليبا، **المعجم الفلسفى**، ج2، ص 101.

فقد كان مؤلف الكتاب يعتقد أن كل العلوم وبكل المناهج تسعى إلى هدف واحد هو تطوير المعرفة الإنسانية، والمساهمة في حل مشكلات الإنسان الظرفية من أجل تحقيق سعادته، وسعادة الإنسانية جمعاء، وقد لا يحتاج هذا الاعتقاد إلى هذه الصيغة، لأنها في رأينا من الأمور البديهية التي لا جدال فيها، ولا يمكن القفز فوقها أو تجاوزها، فكل ما وصلت إليه اليوم الإنسانية من معارف، لم يتحقق إلا بفضل العلماء والبحث العلمي – رغم أن للعلم في بعض الأحيان مآسي على الإنسانية – ولكن ذلك لم يكن نهائيا، لأنه كلما حل الإنسان مشكلة، إلا وتصادفه أخرى، ومادامت هذه المشاكل موجودة ومطروحة فإن بحث الإنسان حولها لا يتوقف، وأن مسألة البحث العلمي لا تخص مجتمعا معينا، وإنما هي مهمة كل المجتمعات مهما كانت درجة تقدمها ورقيها، أو درجة تخلفها وانحطاطها، فالكتاب في جوهره يطرح رؤية مستقبلية لما يجب أن تكون عليه الدراسات الإنسانية التي لا يمكن عزلها عن بقية العلوم، بل يجب إلصاقها بها دون أن تذوب فيها. بمعنى أن تبقى محافظة على خصوصيتها، وإظهار آليات التفاعل وصوره، وضروراته بين مختلف العلوم، وإيجاد جميع المسوغات التي تجعل الفعل الإنساني واحدا في أي مجال من مجالات المعرفة.

ثانيا: الدراسات الإنسانية والفلسفية:

يبدأ المؤلف في الفصل الأول من كتابه، من الدراسات الإنسانية والفلسفية، من حيث مفهومها، والمدخل الفلسفي إليها، فبالنسبة للعنصر الأول والمتعلق بمفهوم الدراسات الإنسانية، سعى فيه المؤلف إلى تحديد العلوم الإنسانية، وفي نفس الوقت تحديد ماهيتها وأهدافها، تحديدا فلسفيا عميقا، مبني على أسس إبستمولوجية، تولدت في اعتقادنا من تعمقه في ضبط المصطلحات، ولذلك لم يكن غريبا أن يبحث في مجموع الصفات والخصائص والمعايير التي تميز العلوم الإنسانية عن غيرها من العلوم الأخرى، ولذلك – كما يقول مترجم الكتاب في مقدمته – أن: «ما يهتم به الدكتور ريكمان فهو يمثل مسألة فلسفية بالغة الأهمية. وإنني اعتقد أن عرضه لهذه المسألة جاء عرضا استثنائيا في وضوحه، وعمقه، واكتماله. لقد حاول أن يبين أن معرفة الدراسات الإنسانية هي في جوهرها مختلفة عن العلوم الطبيعية نظرا لطبيعتها البشرية الخالص»[1].

(1) المصدر السابق، ص 9().

فالمؤلف كان يهدف فى كتابه إلى البحث عن مختلف المسوغات التى تجعل العلوم الإنسانية كلها ترتبط بسمات مشتركة، من حيث موضوعاتها ومناهجها، وأنساقها. ومن ثم رأى أن تلك العلوم، هى كل العلوم التى تتوحد مع بعضها البعض فى تلك السمات، وتختلف مع غيرها من العلوم الأخرى أيضا من خلال السمات التى تتميز بها ، وظهر هذا التميز على وجه الخصوص إبتداء من القرن السادس عشر، بعد تلك التطورات التى حدثت على مستوى العلوم المختلفة، كالفيزياء، والكيمياء، وغيرهما، فالمؤلف كما هو واضح فى العناصر التى تطرق إليها أنه سعى بحماسة شديدة إلى تبيان خصوصية العلوم الإنسانية التى خضعت لمنطق التخصص، وانفصلت عن العلوم الأخرى، واختلفت عنها.

ومما لاشك فيه – وهو واضح للعيان ومؤكد، كما يذهب «ريكمان» برؤيته النافذة – أن حقيقة العلوم الحديثة تتميز بالتنوع ، والتخصص، والانفصال بعضها عن بعض، ولكنها كلها كما يعترف هو نفسه فى آخر المطاف أن تلك العلوم تدخل تحت إطار واحد، وهو إطار المعرفة الإنسانية الشمولية، ويتضح ذلك مما قدمه الفلاسفة مرورا بأفلاطون إلى أرسطو، وبعدهم ابن خلدون وديكارت وغيرهما من الفلاسفة، فهم جميعا يندرجون تحت سقف واحد، وهو سقف المعرفة الإنسانية التى تتعاون جميع فروعها وتخصصاتها فى هدف واحد وهو تطوير الحياة الإنسانية، وتخطى الحواجز التى تصادفها، وتحقيق أهدافها، بالرغم من المسافات البعيدة التى تفصل هؤلاء الفلاسفة بعضهم عن بعض من خلال رؤاهم وتصوراتهم لموضوعات المعرفة وأدواتها ووسائلها.

أما بالنسبة للعنصر الثانى من الفصل الأول الذى تعرض إليه «ريكمان» فهو المتعلق بالمدخل الفلسفى، الذى يعتبره ضرورى لكل دراسة علمية، لأنه لا وجود لبناء علمى سليم يمكن أن يستقل عن مجموعة التصورات والأنساق التى يبنيها الإنسان فى أى ميدان من ميادين المعرفة، وأن تلك التصورات لا يمكن أن تكون إلا الأنساق الفلسفية، ومن ثم فهى سابقة لكل نظرية أو قانون، ولكن ذلك لا يعنى أن كل التصورات هى بالضرورة فلسفية، إذ كما يقول المؤلف: «بالطبع فإن كل البناءات التصورية ليست من صنع الفلسفة، فثمة وقائع خاصة يجب أن توصف بواسطة

المتخصصين فيها.. هاهنا يتقدم هؤلاء بتصورات جديدة عنها، لكن فحص ووضع التصورات الرئيسية التى تنتظم خلالها آراؤنا عن العالم هو من واجب الفلسفة، فتقديم اقتراحات مبتكرة، وتعريفات جديدة، وتصنيفات طازجة توجه الفكر إلى قنوات جديدة، هى إحدى الوظائف التقليدية للفلسفة. ويكفى أن نفكر فقط فى البناء التصورى الذى قدمته النظرية الذرية كفكر تأملى فى العصور السحيقة للفلسفة والذى أثمر إطارا تصوريا ساعد على تقدم العلوم الطبيعية فى العصور الحديثة،[1]، فمن هذا النص يظهر التناسق الفكرى الذى حاول المفكر إعطاءه لمصطلح الفلسفة، ولوظيفتها.

ولذلك فإن «ريكمان» لا يعتبر المجهود الفلسفى الذى يقوم به الفيلسوف أو المفكر هو نوع من الوحى، وإنما هو جهد مستمر ومتواصل يأتى عن طريق البحث والممارسة والخبرة والتعلم، حيث يضيف فى هذا الصدد: «إن اسهام الفيلسوف ليس نوعا من الوحى.. إن على الفيلسوف أن يتعلم أولا مما يفعله الباحث، وعليه أن يدرك مشكلته، وبعد ذلك يكون قادرا بمهاراته الخاصة على تقديم اسهام فى مجال الواجبات المعقدة التى تواجه طالب الشؤون الإنسانية»[2]، لأن هذه الشؤون الإنسانية تفرض على المفكر أو الفيلسوف أن تكون لديه خبرة عن أى موضوع من موضوعات تفكيره الحسية، سواء كانت ذاتية أم موضوعية، وإلا فلا يمكنه أصلا أن يعرف ويدرك معنى الفكر وغرضه، إنه يعيش حياة صراع من أجل أن يتعرف على ما يحيط به، وهو فى هذه المسألة لا يختلف عما ذهب إليه هيجل من قبل حين قال: «إن الصراع فى سبيل التعارف هو صراع حياة أو موت»[3].

ثالثا: نقطة الانطلاق ومفهوم المعنى:

إن هذه النقطة هى مضمون الفصل الثانى من الكتاب – موضوع الدراسة – وتتحدد من خلال افتراضات المعرفة، ووجهة النظر الإنسانية، فبالنسبة لافتراضات المعرفة، يتعرض المؤلف إلى ماهية العلوم، ويميز بين الموضوعات التى تشكل ميدان

---

(1) المصدر نفسه، ص 113.
(2) المصدر نفسه، ص 118.
(3) فرانسوا شاتليه، هيجل، ترجمة جورج صدقى، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى، دمشق، سوريا، ط2، 1976م، ص114.

العلوم الطبيعية المتمثلة فى الأجسام، والكميات فى المكان، وميدان العلوم الإنسانية التى تهتم: «بالأفكار والمطامح والسلوك الهادف والإبداع الفنى، والأدوات التى يصنعها الإنسان، والقواعد التى يفرضها البشر على أنفسهم، والأنظمة التى يستحدثوها، ذلك كلها ظواهر تجعل للحياة معنى، ولهذا كانت الدراسات الإنسانية تعالج أساسا وقائع ذات معنى»[1].

ومن الجلى أن هذه المعالجة متعلقة بالمعرفة الفلسفية بالنسبة للعالم وللكون التى تفترض أن هذا العالم ينطوى على «معانى». وكذلك لسلوك الإنسانى نفسه ينطوى على معنى ودلالة أيضا. ومن هنا يصعب التمييز بين ما هو نظرى وواقعى، وهنا يقول ريكمان: «والحق أن النظرة الكلية للعالم تتضمن العديد من الافتراضات حول ما نعرفه وكيفية معرفتنا له، فتلك افتراضات مسبقة تفرض علينا عند النظر إلى أى موضوع حتى ولو بدا بسيطا»[2]، وهذا التفسير له دور هام وخصوصا فى الدراسات الإنسانية التى يشكل مناهجها وعناصرها موضوع الكتاب الذى بين أيدينا.

وهكذا فالفلسفة هى وحدها التى يشمل موضوعها ميدان هذه المعرفة الافتراضية، ذلك لأن: « الفلسفة تختلف عن العلم والذوق العام، ويبدو هذا الاختلاف واضحا فى ذلك الفرع الذى نطلق عليه مصطلح نظرية المعرفة أو الابستمولوجيا[3] والذى يختص بفحص تلك الافتراضات، ويسعى هذا الفرع إلى وضع الأسس الفكرية للمعرفة والنظر فى كيفية استيعاب العقل للواقع، وتفسر القاعدة التى يرتكز عليها قبولنا للأشياء كحقائق، وتفرقتنا بين الواقع والنظرية والفرض»[4]، ومن هنا فإن

---

(1) المصدر السابق، ص 121.

(2) المصدر السابق، ص 122.

(3) نظرية المعرفة أو «الابستمولوجيا»: هى البحث فى طبيعة المعرفة وأصلها وقيمتها ووسائلها، وحدودها، وهى غير السيكولوجيا التى تقتصر على وصف العمليات العقلية، وتمييزها بعضها عن بعض دون فحصها، وهى كذلك غير المنطق الذى يقتصر على صياغة القواعد المتعلقة بتطبيق المبادئ العامة دون البحث فى أصلها وقيمتها، ومن ثم فإن نظرية المعرفة هى البحث فى المشكلات الفلسفية الناشئة عن العلاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، أو بين العارف والمعروف، من أجل كشف درجة التشابه بين التصور الذهنى والشئ الخارجى لمعرفة حقيقة المطابقة بينهما، فهى بصفة عامة، البحث فى قيمة المعرفة وحدودها. (جميل صليبا، المعجم الفلسفى، ج2، ص478, 479.

(4) ريكمان، منهج جديد... مصدر سابق، ص 123.

لنظرية المعرفة أو الابستمولوجيا علاقة وطيدة بما يعرف بعلم المناهج، وهذه هى المسوغات التى أراد المؤلف من خلالها تحديد موضوع الفلسفة، وتمييزه عن باقى موضوعات المعرفة الأخرى.

على أن الفلسفة ذاتها لا تنتقد وتدرس مسألة الافتراضات المتعلقة بالعلوم الخارجية، وإنما يجب أن تتمحور على ذاتها فتنتقد افتراضاتها وتدرسها، وذلك هو هاجسها الفعلى، لأن «كافة الافتراضات المسبقة حول معرفتنا وتفكيرنا هى الأخرى موضع تساؤل. وللهروب من مأزق الافتراضات المسبقة هذا وضعت الفلسفة نقطة انطلاق لليقين، والمثال على ذلك هو ما يعرف بالمعرفة الكاملة. ولقد حاول العديد من الفلاسفة اكتشاف هذا اليقين فى مجالات متباينة»[1].

هذا بالنسبة لمسألة الافتراضات، أما ما يتعلق بوجهة النظر الإنسانية، التى شكلت العنصر الثانى من الفصل الثانى، فيرى صاحب كتاب «منهج جديد للدراسات الإنسانية» أنه حينما يبدأ الفيلسوف فى التفكير لا يستطيع إغفال حقيقة كونه مخلوقا طبيعيا، له حواس يستخدمها فى اكتساب كل ما يعرفه عن الطبيعة البشرية، ومنه يكون قبولنا للعلوم الطبيعية وللدراسات الإنسانية متضمنا فى نقطة انطلاقنا، فنحن كما يقول : «مخلوقات طبيعية لدينا أجسام تؤدى وظائفها بطريقة محددة بيولوجيا. وخلال أجسامنا نتأثر بالبيئة الطبيعية، فحواسنا تنقل لنا موضوعات العالم الخارجى. وطالما أن لدينا حاجات فسيولوجية ورغبات محددة فإن هذه الموضوعات هى الأخرى، تعبر عن الرغبة وتحقق الإشباع، ولكنها قد تعوق ذلك أيضا، إنها تجلب اللذة أو الألم، الإشباع أو الإحباط، ونحن بدورنا نستطيع التأثير فى البيئة وتعديلها وتغييرها. فإذا كانت الزهور تجلب لنا اللذة بوسعنا تنميتها، وإذا كانت الحواجز تعوق رؤيتنا بمقدورنا إزالتها»[2].

من هذا المنطلق فإن الإنسان باعتباره الكائن الوحيد الذى له القدرة على الفهم والنقد والإبداع والتحليل، فهو وحده أيضا القادر على أن يعى ما يحيط به، وبما يشكل وجوده سواء كان ثقافيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا، أو كان طبيعيا، فالمعرفة بالنسبة له

---

(1) المصدر نفسه، ص 123.
(2) المصدر السابق، ص 126.

تشكل رغبة غريزية، كما تشكلها له رغبة الأكل، والبحث عنه، ولهذا فإن مسألة التقدم والتطور، والإحباط والنكوص، لا ترتبط فقط بمجال العلوم الطبيعية، وإنما تتحكم فيها ضغوطات اجتماعية، لأن الانسان فى تفكيره، وفى تجاوزه، وفى حركته الفكرية بصفة عامة تتحكم فيه مجموعة من العناصر، الوراثية، والمكتسبة من العادات والتقاليد معا، ومادام الإنسان يخضع لكل هذه العوامل وقادر على تمثل حاضرها ومستقبلها، فهو من هذه الزاوية قادر على أن يصبح فيلسوفا، أو بالأحرى هى التى تجعل منه كذلك.

فالفيلسوف فى نظرته للمسائل والمشاكل مطالب بأن ينظر إليها بموضوعية ،وحينما نتحدث عن الموضوعية يكون حديثنا فى إطار سياق محدد بعد أن نسلم ببعض الشروط المعرفية، يحدث ذلك حينما يفحص عالم النبات الزهور. ولكن حينما نبحث مشكلة المعرفة برمتها – كما هو الشأن فى نقطة بدايتها الفلسفية – لا نستطيع أن نهرب من منظورات علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ التى يحدث داخلها أى فعل معرفى،[1].

رابعا: الفهـم:

إن من ضمن الأطروحات الكبرى التى تضمنها الكتاب هو «الفهم» ويركز عليه «ريكمان» باعتباره عملية ضرورية لكل معرفة، ولا تولد معرفة إلا به، وقد تناوله من حيث: تعريفه، وصعوباته، وهو: «متضمن فى كل العمليات العقلية المستخدمة فى حقل الدراسات الإنسانية، إنه يحور العمليات أو يعدلها، وهو بهذه السمات يميز مناهج الدراسات الإنسانية عن مناهج العلوم»[2]، ومن هنا كان الفهم هو نقطة البداية والانطلاق لكل معرفة، ولكن هذا المصطلح كما يشير المؤلف واجه كثيرا من الانتقادات خصوصا من أصحاب النزعة الوضعية، كما أنه اشتمل على كثير من الغموض حتى من أنصاره، والذين يذكرهم المؤلف من أمثال: آرون (Aron) [3]،

---

(1) المصدر نفسه، ص 128.
(2) المصدر نفسه، ص 203.
(3) ريمون آرون (1905-1983): فيلسوف، وعالم اجتماع، اهتم بتوضيح العلاقة بين الواجب التاريخى والوجود فى التاريخ، وخاصة من خلال كتبه: **مع الفلسفة الألمانية المعاصرة** 1936. ومحاولات حول نظرية التاريخ بألمانية المعاصرة 1938. وحاول فى سنة 1955= =

وهيوز (Hughes)، وهذا الأخير يعترف بصعوبة الدراسة التى واجهته فى تحديد المصطلح فى العلوم الاجتماعية الألمانية، ولذلك فلا غرابة فى صعوبة بلورة هذا المصطلح عند أصحاب النزعة الوضعية.

ورغم ذلك فإن «ريكمان» يعتبر أن نقاد نظرية الفهم يمارسون فعلهم ذلك بنوع من اللغو، لأنهم يركزون على عموميات فى تحديد كلمة «الفهم» فى الدراسات الإنسانية، مما يؤدى إلى صعوبة تطبيق المناهج العلمية، ومن ثمة تخلو دراساتهم ومواقفهم من كل عملية نقد وتمحيص، وعليه فإنك: «لا تستطيع أن تجادل فى لغو حقا، وحتى إذا تجنبنا الحقيقة القائلة بتعدد الاستخدامات القائمة للمصطلح، فإن الاستخدام الشائع ليس مقدسا، ونحن جميعا نستخدم تعريفا مبدئيا آخر يصبح من الممكن أن نحدد فعلا محددا للفهم فى الإنسانيات، لكن ذلك ليس هو السؤال الحاسم إن المسألة الرئيسية هى هل يشكل الفهم نمهجا متميزا له دلالته»[1].

إن هذا الغموض الذى يراه «ريكمان» يكتنف بمصطلح «الفهم» هو الذى أدى إلى ضرورة تحديد معناه بدقة، وذلك حسب شروط المعرفة المتوفرة والآنية، فالمصطلح يخضع للملاحظة، كما يخضع فى الوقت نفسه للاتصال، فمثلا عندما تربط بين مسألتين عند ملاحظتك لهما فإن ذلك يختلف عما ينقله لك شخص آخر، ولذلك كما يلاحظ المؤلف أن هذا التحديد ينطوى على ثلاثة عناصر أساسية، فى هذه المعرفة: الأولى، فهم معنى الكلمات، والثانية، الاقتراب من فهم الأفكار، والثالثة، إدراك بعض الوقائع، وأن هذه العمليات ليست متتالية الحدوث، وإنما عناصرها تأتى فى فعل واحد، وكل إدراك صحيح لهذه العناصر، سيؤدى إلى إزال غموض حول معنى مصطلح الفهم، ومنه كما يشير: «أننى أفهم رسالة صديقى، ثم استمر فى القول،

-- شرح الماركسية، من خلال كتابه أفيون المثقفين، التى فشلت تنبوآتها بفرنسا بعد التطور الاقتصادى والاجتماعى.
عمل أستاذا بالسربون سنة 1956، وبـ collège de France سنة 1970، من مؤلفاته أيضا: محاولات حول الماركسية الوهمية Essai sur les marxisme imaginaires، الديمقراطية والتوتاليتارية 1965، نفكر الحرب 1977، مداخله من أجل أوربا المتدهورة plai-doyer pour l'Europe décadente، نشر سيرته سنة 1983، وكان دائما يعارض التأويل الماركسى للتاريخ.

(1) المصدر السابق، ص 143, 144.

وكنتيجة لذلك ما يدور فى ذهنه، ومن طبيعة الاتصال الناجح أن يكون فهم الكلمات، والإشارات أو صور التعبير الأخرى مؤديا إلى فهم الأفكار والمشاعد، والمقاصد التى يعبر عنها»[1].

وهكذا يكون لزاما علينا فى عملية الفهم أن نميز بين عمليتى الفهم والاتصال، رغم الصلة الوثيقة بينهما، وهذا هو الذى يخلق الصعوبة فى عملية «الفهم» فى الدراسات الإنسانية، لأن العملية تتمحور حول المحتوى العقلى الذى يتحدد من خلال التعبيرات المصاحبة لكل فعل، ومنه نفهم ما يفكر فيه الناس، ويشعرون به، لأن السلوك الظاهر هو المنبع الوحيد للمعلومات عند كل منهم بتعبيرات الآخرين وأفعالهم، ولكن ذلك لا ينهى مشكلة الفهم على الإطلاق[2].

فالتعبيرات باعتبارها مظاهر فيزيقية (طبيعية) هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن يحدث الفهم من خلالها، سواء من قراءتنا لمظاهرها الخارجية، أو مما تحمله من معانى تتجاوز تلك المظاهر التى ما ورائها، ومن هنا فإن: «كافة التعبيرات تكشف عن محتوى عقلى، وبعضها يحيل إلى هذا المحتوى، ولما كانت هناك أنماط مختلفة للتعبير، فإن الفهم أيضا يختلف باختلاف هذه الأنماط»[3]. ومن هذا المبدأ يقسم «ريكمان» التعبيرات إلى إصطلاحية وطبيعية، فالأولى ترتبط باللغة، أو جزءا من النسق اللغوى كالإشارات، أما الثانية فهى ترتبط بالمظاهر الفيزيقية (الطبيعية)، وهى تؤدى نفس الدور الذى تؤديه الأولى، ولذلك فإننا نجد فى بعض الأحيان صعوبة فى الفصل بين ما هو طبيعى، وما هو إصطلاحى، ولهذا كان يجب على كل باحث لدراسة هذه الأنماط المختلفة أن يستخدم عدة مناهج تتناسب مع طبيعة تلك الأنماط، وفى ذلك يقول: «واجه الباحث فى الدراسات الإنسانية بطائفة متنوعة من التعبيرات، وكل نمط منها له مشكلاته الخاصة، ويفتح آفاقا محددة للبحث، إذ أن كلا منهما يكشف عن جوانب خاصة للمواقف ذات المعنى، وكذلك فإن فهم مختلف نماذج التعبير يعبر عن عمليات يعتمد بعضها على بعض، ويكمل بعضها بعضا»[4].

---

(1) المصدر السابق، ص 147.
(2) المصدر السابق، ص 148.
(3) المصدر السابق، ص 184.
(4) المصدر السابق، ص 195.

خامسا: الشروط الابستمولوجية للفهم:

وتتحدد من خلال مشكلة التعرف على التعبيرات وفهمها، وشروطها الإبستمولوجية، وما مدى ملاءمة كل هذه المناهج بالدراسات الإنسانية، وقدم المؤلف تلك الشروط فى الفصل الرابع، وفى بداية هذا الفصل يبين المؤلف أن ما يعرف بنظرية المعرفة هى فرع من فروع الفلسفة، تحاول أن تعالج إمكانية المعرفة والحصول عليها، من خلال طرح التساؤل التالى: ما هى الشروط الواجب تحققها إذا أردنا أن نعرف شيئا؟ وللإجابة على هذا التساؤل يرى المؤلف أنه ورغم أن الاعتبارات الابستمولوجية العامة تلائم الدراسات الانسانية، فإنه يجب أن نضع فى اعتبارنا بعض الظواهر الطبيعية التى تعتبر هى الطريقة التى تتمثل فيها كل التعبيرات. ذلك أن المسألة الابستمولوجية النوعية للفهم إنما تثار ونحن بصدد التأكد من وقائع الطبيعة.

وبناء على ما سبق يقول «ريكمان» فإن: «الخاصية المميزة لكافة التعبيرات أنها تدخل فى علاقة مع الأشياء الأخرى التى تمثلها أو تشير إليها، وهى أيضا ترتبط بالضرورة بالنشاط العقلى أو بالمحتوى العقلى الذى يثير أو يبدع العلاقة السابقة، فالمنضدة تشير إلى فكرة بنفس الدرجة التى تشير فيها إلى موضوع، إلا أنه لوحظ أن بعض الحالات تنفرد بأنها ذات طابع عقلى فقط مثل التنهيدة»[1].

من ذلك يظهر أن هناك تعبيرات لها صلة بالواقع وبمواده، وأخرى لها صلة بالعقل، وكل تلك التعبيرات تحتاج منا إلى تأكيدات وإلى فهم، نظرا لأهميتها المعرفية، لأن هناك ارتباط وعلاقة بين المحتوى العقلى والسلوك أو الشئ المدرك المعبر عنه، وهو مما ينفى الرأى الذى يقول به أصحاب المذهب «الأنوى» القائلين بأن «الأنا» هى كل ما يوجد أو هى محور الوجود كله، وما عداها فلا كون ولا وجود، وهو فى الوقت نفسه نفى للرأى التجريبى الذى يذهب أصحابه إلى أن خبراتنا الشخصية لا تتحدد فى اللحظة الحاضرة، ولا بخبرة شخص بعينه، أى أنهم قللوا من شأن الكوجيتو الديكارتى، فقد كان يقول «جون لوك» فى كتابه «**مقال فى الفهم الإنسانى**» أن

---

(1) المصدر السابق، ص 162, 163.

الفكرة هى شئ يكون موضوعا للذهن حين يفكر شخص ما، فالخبرة وحدها هى التى تعطينا كل أفكارنا، ومن ثم، فهى ترتبط بمصدرين أساسيين هما: الإحساس والإستبطان الذى يعطى أفكارا بسيطة، فالمعرفة عنده إجمالا هى عبارة عن إدراك العلاقة والاتفاق أو التنافر والاختلاف بين أفكارنا[1]. ومن هنا فالذات العارفة حين تفكر لا ترى نفسها منعزلة فى الوجود، وكل ما يحيط بها عبارة عن موضوعات، وإنما تشاركها كائنات أخرى تحيط بها، وهى الكائنات الإنسانية، وعليها تتوقف معرفتنا بذواتنا وبما يحيط بنا، وقد أشار المؤلف إلى ذلك بقوله: (أن الفهم يفتح العالم على مصراعيه من أجلنا، أنه يرتكز على سياق تفسيرى، وعلى تعددية أفراد مترابطين. إن الفهم كما حدده ديلتاى (Dilthey) [2] بدقة هو «إعادة إكتشاف الأنا فى الغير»[3]، رغم أن الشعور بالذات هو فى حد ذاته فهما، أو موضوعا للفهم، وقد تصبح الأنا فى مرحلة ما هى الغير عندما تكون موضوعا للمعرفة.

إن تشابه الكائنات الإنسانية لا يعنى فى الوقت نفسه تماثلا مطلقا بينها، بل أن هناك خصائص معينة تميز كل إنسان عن الأخر، وتلك السمات هى التى يؤكدها علم النفس دوما على أن الأفراد يختلفون عن بعضهم البعض، كما أن تاريخ الإنسانية يؤكد أن المجتمعات البشرية تختلف فى حضاراتها من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر، وكشفت لنا أيضا الأنثروبولوجيا عن كيفية تأقلم الإنسان مع البيئة التى يعيش فيها، ومن هنا أصبح لكل فهم شرطان أساسين هما: «أنه يجب أن يكون ثمة تعبير، وأن هذا التعبير يجب أن ينبع عن خواص الطبيعة الإنسانية المألوفة لدينا، أصبح من

---

(1) آير، المسائل الرئيسية فى الفلسفة، ترجمة، محمود فهمى زيدان، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1988م، ص 79.

(2) ويلهالم ديلتاى Wilhelm Dilthey 1833-1911، فيلسوف المانى، حاول وضع علم النفس والميتافيزيقا وتصورات العالم وفق مفهوم التاريخ، وهو بذلك ساعد على نشوء وظهور الحركة التأريخية، كتب مدخل إلى دراسة العلوم الإنسانية -larousse multimedia, encyclop .edie klio. 1883

وكان ديلتاى يرى أنه من الصعب تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الثقافية، كما حاول أن يضع حدا فاصلا بينهما، والفكر الإنسانى يتخذ فى كلا العلمين شكلا متميزا ومنهجا مختلفا، فالفكر فى العلوم الطبيعية يتخذ صورة «التفسير»، فى حين يتخذ فى العلوم الثقافية صورة «الفهم» . (ريكمان، المصدر السابق، ص 15).

(3) المصدر السابق، ص 164.

الأمور المسلم بها بعد ظهور كتاب «هايك» المسمى « بالثورة المضادة فى العلم» والذى تحدث فيه عن المعتقدات والآراء التى لا نتمكن من ملاحظتها مباشرة فى عقول الناس، ولكننا نتمكن من التعرف عليها من خلال أعمالهم وأقوالهم، وما ذلك إلا لأننا نمتلك ببساط عقولا متشابهة لعقولهم»[1].

وبناء على ما سبق فإن الاعتقاد بأننا لا نتعرف على مظاهر التعبيرات الإنسانية كالحب والطموح وغيرهما إلا إذا كانت لدينا خبرة، فهو إعتقاد زائف، وعليه ينتقد «ريكمان» كل من يذهب هذا المذهب، وهو الموقف الذى عبر عنه «ناجل» من قبل فى كتابه «بناء العلم»، لأننا لو خضعنا للاعتقاد السابق فإنه يكون من العسير علينا أن نتعلم شيئا من الفهم، ولا نستطيع معرفة أى شخص يختلف عنا، ولن يغنى الفهم خبرتنا، ولن يكون منهجا نافعا للدراسات الإنسانية.

ويحدد «ريكمان» الشروط المعرفية للفهم فيما يلى: أولا: رغبتنا فى الإتصال، وباتجاهنا نحو التعبير عن أنفسنا. وثانيا: ألفتنا بالقواعد والاصطلاحات التى تحكم الأغلبية العظمى من التعبيرات، أى بالطبيعة الإنسانية التى يتعمق فهمها بواسطة الاستبطان والسير الذاتية، لأن كل ما يخلقه العقل البشرى يمكن للعقل الإنسانى فهمه، من خلال سمة التآلف الإنسانية، فمعارفنا – حسب كانط – هى من صنع عقولنا أو من خلقنا، ففهمنا للتعبيرات الفردية التى لا حصر لها يعنى فهمنا «العالم الثقافى» الذى يحمل ملامح هذه التعبيرات، وهى عبارة عن خلفية ثقافية تتوسع وتمتد عن طريق تراكم الخبرات التى تتوقف على الرحلات والقراءة، وما شابه ذلك، وهذا هو الهدف العام من الدراسات الإنسانية التى تسعى لأن تجعل معرفتنا أكثر اتساعا، من خلال معرفتنا لجزئيات ذلك التراكم فى الخبرات. ثالثا: فهم السياقات المحددة التى تحدث فيها التعبيرات، من خلال فهم الجملة والفقرة والكتاب... الخ، أى الوعى بالسياق، وهذا الشرط الأخير لا يخص الدراسات الإنسانية وحدها بل يشمل كل الدراسات بما فيها الطبيعية[2]، ويتضح من هذه التحديدات للفهم أنه ليس منهجا، وإنما هو عملية معرفية.

---

(1) المصدر نفسه، ص 166-167.
(2) المصدر السابق، ص 173.

من الواضح فى هذا السياق – كما يقول المؤلف – إن : «الإطار الرئيسى لتطور الدراسات الإنسانية العلمى يجب أن يدعم بعملية تجعل المألوف والمقبول من لدى الرأى العام الشائع مفهوما فهما نسقيا ومنهجيا، ونضالنا نحو تحقيق كامل للشروط الابستمولوجية الثلاثة يمكننا من التواصل إلى فهم منهجى دقيق»[1]، فالمألوف الذى يمثل التراكم فى الخبرة ليس مستعصيا على الوصف والدراسة والتجزئة كما يذهب إلى ذلك برادلى[2]، حتى يعتبر الخبرة كلا غير قابل للتجزئة.

سادسا: المنهج العلمى فى الدراسات الإنسانية:

وهو محور الفصل السادس من كتاب «ريكمان»، وفيه يبدأ فى التمييز بين علم المناهج ونظرية المعرفة، فيرى أن الأول هو العلم الذى يدرس المناهج التى تكتسب المعرفة من خلالها، بينما الثانية: فهى تدرس الشروط الرئيسية اللازمة للحصول على المعرفة، أما المنهج فى حد ذاته فهو كما يحدده تجمع نسقى من عمليات معرفية ترتبط بتقنيات نوعية أو باجراءات خاصة[3]، ولما كانت الدراسات الإنسانية متنوعة كانت مناهجها كذلك، فالتأمل الفلسفى يتضمن تركيبات متميزة، زى منهجا خاصا، ونفس الشئ ينطبق على التأمل الأخلاقى والتقدير الجمالى، ومناهج هذه الأنماط المعرفية، تختلف عن مناهج العلوم الطبيعية، ورغم ذلك يمكن القول كما لاحظ ريكمان أن كلا من العلم والدراسات الإنسانية يستخدم المنهج العلمى، لكن النسق العلمى يختلف عن نسق الدراسات الإنسانية فيما يتناولانه[4]، وهنا يقع الاختلاف بين العلوم الطبيعية وبين الدراسات الإنسانية، رغم أنهما يسعيان معا للحصول على المعرفة وتطويرها.

ومن الجدير بالذكر أن الرأى السابق لا ينفى إستخدام المنهج العلمى فى الدراسات الإنسانية، لأن المنهج العلمى كما حاول تعريفه «ريكمان» هو العلاقة النسقية بين التنظير والخبرة، وغالبا ما تستخدم فيه الملاحظة والتجريب تقنيات دقيقة، من

---

(1) المصدر نفسه، ص 176.
(2) آير، **المسائل الرئيسية فى الفلسفة**، ص 24.
(3) المصدر السابق، ص 199.
(4) المصدر نفسه، ص 200.

أجل إمداد التعميمات والفروض بالمواد اللازمة وتصبح هذه الأخيرة فى مرحلة ما هى نفسها عرضة للإختبار، وإذا أكد الإختبار هذه التعميمات والفروض تصبح قانونا علميا، وإذا لم يؤكدها بحثنا، عن تعميمات وفروض أخرى، وأن هذه العملية لا تخرج عن المناهج المتبعة فى الدراسات الإنسانية، لذلك يقول «ريكمان» «إن القول بأن الدراسات الإنسانية تستخدم المنهج العلمى... هو قول لا جدال فيه ، فنحن لا نجد أمامنا أى رأى حول الطبيعة المحددة للدراسات الإنسانية يتناقض مع هذا القول. لكن يحدث أحيانا أننا نبقى كلمة «علمى» للبحث المرتكز على القياس والتحكيم الفيزيقيين، فإذا حدث هذا، أمكن لنا أن نصف الدراسات الإنسانية بأنها «لاعلمية». لكن مثل هذا الرأى الأخير يمثل تصورا تعسفيا وضيقا لطبيعة المنهج العلمى، بحيث إذا استطعنا أن نحدد ذلك المنهج تحديدا أوسع وأكثر شمولية ، فإننا سوف نلمس أن باستطاعتنا استخدام المنهج العلمى فى حقل الدراسات الإنسانية استخداما كبيرا»[1].

أما موضوع منهج العلوم الطبيعية أو العملية هو الوقائع الفيزيقية (الطبيعية) ، بينما موضوع منهج الدراسات الإنسانية هو الوقائع العقلية التى تتضمن، اللغة، والدين، والتقاليد، والأدب، والفكر، والمشاعر، والأهداف، أو بصفة إجمالية كما يقول «ريكمان» هو «التعبيرات» ، مؤكداً على أن هناك علاقة بينهما (العلوم الطبيعية والدراسات الإنسانية) ، إذ أن نتائج الوقائع الفيزيقية (الطبيعية) تمثل نقطة الاهتمام فى الدراسات الإنسانية ، وأن تلك الوقائع العقلية المرتبطة بالإنسان لا توجد بذاتها، وإنما هى تتجسد دائما فى عالم طبيعى «فيزيقى» ، فهناك عندئذ حقيقة جلية لا تقبل الشك، وهى وجود علاقات متبادلة بين مختلف العلوم، غير أن الوقائع الفيزيقية تبنى من وجهة نظره على مبدأ «العلية» . أما الوقائع العقلية فتبنى على مبدأ «السببية» ، الذى قد يختلف فيه سبب ظاهرة ما عند شخص معين، عن نفس السبب فى ظاهرة أخرى، عند شخص آخر. ولذلك فهو يرى أن هناك إختلافا بين المبدأين، رغم اعتيادنا على استخدامهما بنفس المعنى، وفى ذلك يقول: «ومن أجل الوضوح فسوف أقيم تمييزا حاسما بين هذين المصطلحين على الرغم من أننا نستخدمهما فى لغتنا العادية وكأن لا تمييز بينهما. ومن هذا المنطلق تكون الضوضاء علة اهتمامى بها.

---

(1) المصدر السابق، ص 201.

وحينما يؤدى الاهتمام بالضوضاء إلى أن أغلق أذنى، فإننى أسمى ذلك أو أعده سببا لا علة،[1]، ومن هنا فإن الأسباب هى مدار الدراسات الإنسانية المتمثلة فى الوقائع العقلية باعتبارها أهدافا أو أغراضا أو غاية نهائية، والعلل هى مادر الدراسات الطبيعية التى تخلصت من مبدأ العلة الغائية وخصوصا بعد نمو الروح العلمية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والثورة التى حملها كل من سبينوزا وهوبز على غيبيات الفكر.

وانطلاقا من تلك المحاولات، حسب المؤلف كانت قد تخلصت العلوم الطبيعية من فكرة الغائية، التى بقيت فقط فى حقل الدراسات الإنسانية، لأن الفعل الإنسانى الذى يشكل الوقائع العقلية – رغم ذاتيته، سواء من حيث كونه حالة عقلية، أو من حيث كونه طريقة خاصة للنظر فى الأشياء، أو التفسير الذاتى – وللتمثيل، فالإنسان حين يستخدم المطرقة فى تثبيت مسمار فى حائط كى يضع عليه صورة، فإننا – كما يقول «ريكمان» – نجد أنفسنا أمام تمييز واضح وحاسم بين العلوم الفيزيقية، وبين الدراسات الإنسانية، إذ: «بينما تعكس قوانين العلوم الفيزيقية الانتظامات الموجودة بين الأشياء على النحو الذى توجد عليه فى الطبيعة... نجد قوانين الدراسات الإنسانية وهى متطابقة مع القواعد التى صنعها الإنسان، إن المبادئ الأخلاقية التى تعكس تقييماتنا والتى يتم فى ضوئها صنع القرارات هى أيضا قواعد من هذا النوع... فإن مثل هذه الأسباب تكشف عن اهتمام الدراسات الإنسانية بالقيم والمبادئ والمعايير على عكس العلوم الفيزيقية»[2].

لقد ميز «ريكمان» بين العلل والأسباب فى الأفعال الإنسانية من خلال مبدأ «الحرية» بالرغم من أن هذه الأخيرة من أهم المشاكل الفلسفية المعقدة التى دارت بشأنها جدالات كثيرة، فالإنسان يقوم بأفعاله بناء على أسباب، أى أنه يكون محددا بمجموعة من البواعث والغايات والمبادئ التى تعطى معنى لفكرة الحرية، بالرغم من أننا نفكر فى ضوء العلل ومحكومون بالتركيبات العضوية للجسم، إلا أننا كما يلاحظ المؤلف: «نتحدث عن أناس أحرارا، إن قبول الأسباب يتضمن الاختيار، ومن ثم فإننا

---

(1) المصدر نفسه، ص 213.
(2) المصدر السابق، ص 215, 216.

ننتقل من قرار إلى قرار بدلا من أن نكون خاضعين لسلسلة من العلل والمعلومات. إن الحرية بهذا المعنى تصبح واحدة من المعلومات المميزة للعالم الإنساني»[1].

سابعا: الموضوعية فى الدراسات الإنسانية:

بقى لنا فى هذه الدراسة أن نبين معنى الموضوعية فى الدراسات الإنسانية، التى تعرض لها «ريكمان» فى كتابه موضوع الدراسة، وذلك من خلال تحديده لمسألة الاختلاف بين المنهج فى العلوم الطبيعية، والمنهج فى الدراسات الإنسانية، على أساس التمييز بين الذاتية والموضوعية فى دراسة كل منهما، فهو يرى أنه من الصعوبة بمكان أن تتخلص الدراسات الإنسانية من الذاتية، التى هى ميزة لها، ومع ذلك فإنه يمكننا التحدث عن الموضوعية فيها، ولكنها تختلف عن الموضوعية فى العلوم الطبيعية، إذ: «الموضوعية تشير فى مجال الدراسات الإنسانية إلى قدرتنا على إيجاد علاقة تربط نتيجة كل حالة فردية بهيكل كلى من الأدلة يكون فى نهاية الأمر معرفة ذاتية أو أنساقا ذاتية نتمكن بها من استبعاد الذاتية الفردية التى قد تفسد جزءا من البحث العلمى»[2]. بمعنى أنه على الباحث فى الدراسات الإنسانية أن يجعل ذاته مستقلة عن دائرة الفعل الذى يشكل الواقعة العقلية، وبالتالى يبعد كل فهم ووصف يفتقر إلى الدقة والانضباط، بمعنى أننى أجعل نفسى - كما يلاحظ المؤلف - خارج دائرة البحث فلا أصدر حكما أخلاقيا ولا أقوم فعلا، وهذه هى ميزة العلم نفسه الذى يهدف إلى التعبير عن العلاقات القائمة بين الأشياء التى يقوم الإنسان بدراستها، والتعرف على أنساقها، غير أن طرق الحصول على تلك المعرفة تختلف من موضوع لآخر[3].

ولذلك فإن الدراسات الإنسانية ليس من واجبها الإعلان عن الأحكام الأخلاقية، ولا النظر فى أسس قبولها، ومدى صدقها وموضوعيتها، لأن ذلك واجب الفلسفة والأخلاق على اعتبار أن هناك تمييزا بين الدراسات الإنسانية، وبين الأنساق الفلسفية، ومن ثم يستطرد المؤلف قائلا أن: «الدراسات الإنسانية مثلها فى ذلك مثل

---

(1) المصدر نفسه، ص 216.
(2) المصدر نفسه، ص 220.
(3) عمار بحوش ومحمد محمود الذنيبات، مناهج البحث العلمى وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1999م، ص8.

العلوم الطبيعية تهتم بالوقائع، وذلك رغم أن وقائع الدراسات الإنسانية هى من نوع خاص يختلف عن نوع الوقائع الموجودة فى علوم الطبيعة،[1]، بمعنى أن الوقائع فى الدراسات الإنسانية ينتجها كائن إنسانى، عكس الوقائع فى العلوم الطبيعية، التى تنتجها الطبيعة ذاتها.

ويخلص المؤلف فى عن الموضوعية، وعن المنهج العلمى فى الدراسات الإنسانية، إلى القول: «بأن الدراسات الإنسانية تستخدم المنهج العلمى، أى أنها تتشارك مع العلوم الطبيعية فى الطرق النسقية العامة التى تربط العمليات المعرفية فى سعى حثيث نحو المعرفة»[2]، وذلك رغم خصوصية كل علم من هذين العلمين، ومن الطبيعى إذا كانت هناك علاقة بين هذين العلمين، أن تكون علاقات أخرى متبادلة بين العلوم الإنسانية نفسها التى تختلف موضوعاتها أيضا بعضها عن بعض، لأن تداخل العلوم وتبادلها له قيمة مثمرة على مجال البحث والمعرفة الإنسانية، وأن الذى يمدنا – حسب ريكمان – بهذه الأهمية فى التعاون بين تلك العلوم هى الدراسات الإنسانية نفسها.

ونؤكد فى هذا المجال، أن «ريكمان» يربط مختلف العلوم الإنسانية بموضوع واحد هو التعبيرات المحددة فى سياق ما، فتعبيرات علم النفس يمكن أن تكون هى نفسها للتاريخ وللإقتصاد... الخ، ولكن ألا يعنى هذا نوعا من التناقض والتعارض فى المفهوم والموضوع نفسه؟ فإذا كان الموضوع هو التعبيرات فإنه يصبح واحدا فى جميع العلوم، وبالتالى فلا يمكن فصل موضوع عن آخر، وهنا نجد أنفسنا فى مأزق تفسيرى بالنسبة للعلوم الإنسانية من حيث موضوعها. وكذلك من حيث منهجها، لذلك يمكننا القول أنه إذا كان هناك تداخل بين هذه العلوم كلها، فلا يعنى ذلك أن يكون موضوعها بالضرورة واحدا، وهو التعبيرات، فكيف يمكن أن يكون الإنتاج والدخل والنقد التى هى من إهتمامات علم الإقتصاد ، تعبيرات؟، إنه رغم ارتباط تلك الاهتمامات، بالإنسان، الا أنها منفصلة عن ظواهره، فهى تتعلق بالمواد الطبيعية المتوفرة التى تسهل العملية أكثر مما ترتبط بتوجهاته وتعبيراته، فهى مثل الظواهر

---

(1) المصدر السابق، ص 222.
(2) المصدر نفسه، ص 227.

التشريحية التى ترتبط بذات الإنسان ولكنها ليست تعبيرات إنسانية، بل هى موضوعات لعلم التشريح الذى يختلف عن العلوم الإنسانية – كما سبقت الإشارة – .

إن ما يمكن أن نخلص إليه، ونستنتجه، من خلال عرضنا لأهم المبادئ الفكرية التى شكلت موضوع الكتاب المدروس، هو اعتقادنا أن ما قام به المؤلف يعد جهدا كبيرا، فى بيان جملة من الخصائص الفلسفية الرئيسية، التى سعى من خلالها إلى تحديد مناهج الدراسات الإنسانية، وكذا ضبط موضوعاتها، سواء فى تحديد علاقتها مع بعضها البعض، أو فى تحديد علاقتها أيضا مع باقى العلوم الأخرى، ولكن كل ما قام به، وما توصل إليه «ريكمان»، لا يمكن أن يعتبر حدا نهائيا أو مطلقا فى المعرفة البشرية، وخصوصا على مستوى المناهج التى تناولها بالدراسة، إن الموضوع الذى تناوله المؤلف مازال فى حاجة إلى إستمرارية ومواصلة فى البحث، لأن البحث فى المناهج ذاتها يخضع لمنطق التقدم والتطور المستمر الذى يحصل من مستوى طموح الإنسان وجهده المتواصل الذى لا يتوقف عند حد معين، إذ ليست هناك قوالب ثابتة يمكن وضعها كمرجعية لكل بحث فى العلوم، وإنما المرجعية الوحيدة، للإنسان الذى يبحث، هى صفة التفلسف الملازمة له، وهى سمة أساسية من سماته، ودليل على فاعليته فى تغيير محيطه الثقافى والمعرفى، ويمكن اعتبار الكتاب – موضوع الدراساة – فى ذاته سمة من سمات التفلسف الذى يدخل فى باب الإختلاف والتنوع المعرفى، الذى يساعد على تطوير الفكر الإنسانى.